مجلة المرابط

العدد : ٢١٥ الموافق في شعبان ١٤٢٠ هجري ١ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : التصوف والغرب ٢/٢	بقلم : د. مروان قباني

الغرب .. ذلك العالم الكبير الذي تسلم زمام البشرية منذ عدة قرون ، يعيش ومنذ فترة نهضته تحولات فكرية متلاحقة وخضات اجتماعية سببتها إلى حد بعيد تلك الاعتقادات والممارسات الدينية المسيحية ، مضافة إليها مؤثرات فلسفة الإغريق والرومان ، في هذا العالم تجري محاولات معاصرة لبعث صوفية مسيحية .

التصوف المسيحي : في الوقت الذي ينطلق فيه التصوف الإسلامي من عقيدة التوحيد المطلقة وإخضاع النفس لإرادة الله تعالى ، فإن التصوف المسيحي - انطلاقاً من عقيدته بأن الكلمة صارت جسداً - ، يقول بالحوار مع شخص المسيح الذي حلَّ الله فيه - على زعمهم - وحضور هذا الحلول في حياة المسيحي عن طريق المعرفة والمحبة بتأثير الروح القدس ، ورغم معارضة هذه الفكرة لعقيدة المسلمين ، فقد أثرت على بعض المتصوفة المسلمين ، وخصوصاً الصوفي المشهور الحسين بن منصور الحلاج (ت : ٣٠٩ هـ) الذي قال بالحلولية المشابهة للعقيدة المسيحية ، إلا أننا لا نستطيع أن نظلم التصوف بادعاء أن الحلاج يمثله ، فما قاله ليس من الإسلام وليس من التصوف .

ولكن مع هذا نجد تشابهاً كبيراً بين الطرفين ؛ فنجد التأثير المسيحي على التصوف الإسلامي في نظام الرهبنة لجهة تعذيب البدن والامتناع عن الزواج واعتزال الناس ، مع أن دعوة الإسلام إلى الزهد لا تصل إلى حد الرهبنة التي قال الله إنهم : { ... ابتدعوها ما كتبناها عليهم ... } [الحديد : ٢٧] كما يلتقيان في الدعوة إلى الحب ، وهو مقام هام في مدارج السالكين مع اختلاف في معانيه لدى الطرفين ، كما يتوافقان على أن الطريق الباطني هو الموصل إلى الكشف ومعرفة الذات الإلهية .

ولكن ما الذي يدعو إلى بعث التصوف المسيحي ؟

إنه ولا شك تلك التحولات العميقة التي أوصلت الغرب إلى ما هو عليه اليوم ، فهو منذ الثورة الصناعية بدأ بالتخلي عن الإيمان والقيم المطلقة ، فظهرت فيه أفكار الفردية واعتداد الإنسان بنفسه ، إضافة إلى عقلانية مادية مطلقة ، أدى هذا برغم بعض الإيجابيات في مجال التطور العلمي إلى : هيمنة الغرب على العالم وممارسة الاستعمار المباشر ونهب ثروات الشعوب ، وقيام حروب عالمية قتلت ملايين البشر ، وتصفية شعوب كاملة بذبائح منظمة ، كما تمَّ اختراع أسلحة فتاكة يمكن أن تقتل البشر كافة بلحظات قليلة ... هذه الممارسات أدت إلى الاعتقاد بأن الحياة لا معنى لها ، فظهرت أفكار

الوجودية والعدمية واللامعقول ، مما أدى إلى ظهور العنف بين الأفراد والدول ، وسادت قيم المنفعية وجنون التنمية ، وظهرت عبادة السلطة والثراء والجمال والشهرة والجنس .

وبروز التصوف المسيحي مجدداً يعتبره المسلم الألماني مراد هوفمان : (شكاً متزايداً ليس فقط في العقلانية باعتبارها منهجية ، ولكن في عقلانية العلوم الغربية وأنظمة المجتمع الغربي ، ذلك أنها عقلانية أنتجت شؤم الاستراتيجية النووية وتخريب الطبيعة وتخلف الشعوب الضعيفة ... إن الشباب - يقول هوفمان - يريد أن يصحح خطأ هذا التصور وذلك في الارتماء في أحضان نقيض العقلانية مستسلماً لأساطير جديدة وعملاً بالشعار (إنه جداً بديع أن تسمع فتطيع) . (الإسلام كبديل ص ٩٢)

التصوف الإسلامي في الغرب

من بداهة القول وصف الصورة التي تُرسم للإسلام في الغرب ، وكم هي في نظر الغربيين سيئة ومخيفة من جهة ، وفولكلورية وكاريكاتورية من جهة أخرى ، وإن دعوات الحوار التي نسمعها من بعض عقلاء الغرب لم تجد نفعاً إلا في دوائر ضيقة جداً ، لأن سداً منيعاً يجري بناؤه منذ آماد بعيدة للحد من إمكانية التخاطب السليم وتبادل الأفكار تقوم به عملياً وحثيثاً وسائل الإعلام بأنواعها ومناهج التعليم في الغرب .

هذا السد المنيع لم يمنع من حدوث اختراقات فردية قام بها مسلمون تجاه الغرب أو غربيون تجاه الشرق ، وبالأخص جماعات من المثقفين ، وما دخول أسماء مشهورة في الإسلام منذ ما قبل منتصف هذا القرن إلا دليل على رغبة عقلاء الغرب في التعرف الصحيح على الإسلام انطلاقاً من بحثهم عن الحقيقة ، أمثال : اتيين دينيه ، ورينيه جينو ، والدكتور جرنييه ، واللورد هيدلي ، ومحمد أسد ، وفي العقود الأخيرة : مراد هوفمان ، وروجيه غارودي ، إلى جانب العديد من الأفراد المغمورين .

فما الذي لفت هؤلاء إلى الإسلام حتى اقتنعوا به وأشهروا إسلامهم ، وجعلهم يعانون كثيراً من روح العصبية وعدم التسامح من مواطنيهم ...

لا شك أن المنطلق الأساسي لهم لم يكن ما نسميه عقلانية الإسلام وشمولية شريعته لقضايا الحياة بأكملها ... بل رأوا في بساطة عقيدته التوحيدية شيئاً جديداً لم يألفوه ، ووجدوا في التصوف الإسلامي غايتهم ونهمهم إلى حياة روحانية ... من خلال فهم مقبول لتصوف غير مؤسس على شطحات ، وربما يكون روجيه غارودي أبرز مثال على ذلك ، إذ لا شك أن مسيرته الفكرية انتهت إلى اختيار التصوف الإسلامي موقفاً من الله والكون والإنسان (روجيه غارودي والمشكلة الدينية ص ٢٦٤) .

ويظهر هذا البعد في مفهومه للإسلام حيث يرى أن الله لا يمكن أن يكون فكرة عقلية ولا موضوعاً للاستدلال العقلي ، وأنه لا يُعرف إلا عن طريق المحبة والتجارب الروحية ، وأن قيمة الإنسان ببعده الإلهي حباً في أعماق نفسه ولكن مع نفي كل فكرة حلولية .

لذلك يفرق غارودي بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي القائم على مفهوم التجسد المعارض لعقيدة الإسلام ، وتأكيده هذا يؤدي بنا إلى عدم وجود مبرر لمن قال أن غارودي انتهى إلى الحلول والاتحاد بسبب استشهاداته بنصوص ابن عربي والحلاج والسهروردي (أكرم ضياء العمري - مجلة الأمة) .

هذه الإشكالية التي يراها البعض عند غارودي تبدو غير موجودة عند مراد هوفمان ، الذي يعرض التصوف في كتابه (الإسلام كبديل) عرضاً متوازناً ، فيشير إلى مزايا التصوف وارتباطه بالقرآن والسنة ، ويشير إلى مزالق الصوفيين وشطحاتهم ، كما يرى مناقضة التصوف المسيحي للعقل وأن الحل للمسيحيين الذين يريدون الجمع بين العقلانية والتصوف - برأيه - هو أن يسلموا .

وإن صفاء التصوف ، وإن وجد مجاله عند المثقفين وكبار الكتاب ، إلا أنه عند عموم من يدخل الإسلام من الغربيين ليس كذلك ، وهنا تكمن خطورة الدخول المجزأ إلى الإسلام .

ذلك أنه وبالقدر الذي نتكلم فيه في بلادنا عن العقلانية ، ونصف الإسلام بأنه دين العقل ، وأن الآيات القرآنية تخاطب أولي الألباب ، بالقدر نفسه يتشوق القوم في الغرب إلى ما يسمى بالروحانيات ، ويتوقون للحديث عن تزكية النفس والتأمل والصلاة والذكر ... وهذا ما يفسر لنا انتشار أفكار كريشنا واليوغا وغيرها .

إذن الذي يحدث عملياً هو جنوح كلا الجانبين بسبب إرادة تغيير الواقع ، وكلتا الحالتين خطأ وانحراف وينبغي إعادة التوازن في الخطاب الإسلامي بالتركيز على عظمة الإسلام في عقيدته التوحيدية ، وعلى توازنه الدقيق في الجمع بين العقلانية والروحانية ، وتلبية جميع نزعات الإنسان وأشواقه في توسط ينشىء الإنسان السوي .

هذا يعني - كما نرى - وجود فراغ كبير ينبغي شغله ، بأن تتحفز أدوات الدعوة في الغرب لفهم تلك الأوضاع ، فيكون الكلام عن الروحانية ودعوة التصوف هي المدخل نحو تكامل الإسلام وليست الغاية .

لقد كان من الخطأ الجسيم أن حدث ما يناقض ذلك ، فبسبب انتقال أفراد من مجموعات إسلامية مختلفة إلى الغرب - لأهداف متنوعة - مارسوا بالطبع دوراً في الدعوة سواء بين المسلمين وبين

غيرهم ، ولكن حسب الرؤية الخاصة لكل مجموعة ومناهجها ، بل أيضاً وبناء على خلفياتها الفكرية الخاصة التي حملتها معها من الشرق ولم تراع إلى حد بعيد خصوصيات الغرب وبيئاته الثقافية ، فتم نقل مشاكل الفرق والمجموعات الإسلامية الجارية بين المسلمين في بلادهم ، وكأنها جاءت معهم بالطائرة فأسقطوها على مجتمعات الغرب ، فأصبحنا نرى الفرق الإسلامية نفسها مع خلافاتها في الغرب التي لا صلة له بها ولم تنشأ في بيئاته .

إن في التصوف الإسلامي طاقة عظمى وإمكانات كبيرة وصلاحية واسعة للدخول إلى مجتمعات الغرب ، ولكن على أن يقتصر عرض التصوف بأخلاقياته وسلوكه واهتمامه بتزكية النفوس ودعوته إلى التخلص من أمراض القلوب ، مما نراها في سيرة النبي ﷺ وسنته ، وأن يتوقف هذا دون الكلام عن فلسفات التصوف وشطحات المتصوفة ، ودون الولوج في الطريق الباطني الموصول إلى المعرفة والكشف ، وادعاء زوال الحجب عن الحقائق والأسرار ، ودون القول بوحدة الأديان والعقائد ، ففي كل هذا انحراف عن التصوف ، وبالتالي انحراف عن الإسلام ، كما إن تركيز خطاب التصوف على موضوع كرامات الأولياء والاستفاضة بذكر أحوال الأولياء وزيارات أضرحتهم والدعاء عندها بأوراد خاصة هو خطاب غير مطلوب وغير مفيد ... إننا نؤمن بالكرامات وهي منحة من الله لأوليائه ، إلا أن التندر بكراماتهم لم يعد دعوة إلى الإسلام ، بل دعوة إلى تعظيم الأشخاص وتقديسهم ، وشتان ما بين الدعوتين .

إن التصوف لا يعدو أن يكون مدخلاً واسعاً إلى التعرف على الإسلام في عقيدته وشريعته ونظامه الشامل ، ورؤياه إلى الكون والإنسان للرقي به إلى مستوى رسالته وفي قوته الكامنة فيه للعب دور حضاري ينقذ البشرية مما فيه من ويلات .

وفي الختام يمكننا تلخيص نتيجة كلامنا على الشكل الآتي :

إن الغرب ساحة متنوعة ودقيقة يجب أن تفهم بشكل تام ، وأن يجري استيعاب خلفياتها الثقافية في التعامل معها .

علينا أن نعترف بوجود التنوع داخل الأمة ، وعليه فإن التصوف تيار إسلامي هام لا يمكن أن نقف منه موقفاً سلبياً ، بل لا بد من استكشاف مزاياه في تنمية النفس والروح .

يمكن اعتماد خطاب التصوف في الدعوة إلى الإسلام ، على أن يكون هذا الخطاب متقيداً بالقرآن والسنة ، وأن يبتعد عن الشطحات والفلسفات .

لا يمكن لأي مجموعة إسلامية أن تدعي تمثيل الإسلام وقدرتها على تغطية حاجات الدعوة الإسلامية ... إن كل مجموعة ينبغي أن تعتقد أنها جزء من حركة الدعوة الإسلامية الكبرى ، وأن المجموعات الدعوية يكمل بعضها بعضاً ، مما يدعو إلى التعاون فيما بينها ، وإقامة منظومة دعوية تستفيد من الطاقات الإسلامية المتنوعة ، هذا إن حسنت النية وحسن العمل .